ISSN: 2710-8759/ EISSN: 2992-1376 | 2026/01/15 | مجلة أطراس07(01)، 730-745

بين الفطرة والتكلف: دراسة لتأصيل مهنة الطبع والصنعة في النقد العربي القديم

Between Innateness and Affectation: A Foundational Study of Natural Talent and Craftsmanship in Classical Arabic Criticism

ثائر محمد إبراهيم الملكاوي[1]، زيد "محمد خضر" أحمد الدباغ[2]

[1]الجامعة الأردنية– مركز اللغات، المملكة الأردنية الهاشمية– عمان

[2]الجامعة الأردنية، المملكة الأردنية الهاشمية– عمان

تاريخ الاستلام : 2025/06/21 ؛ **تاريخ القبول** : 2025/08/23 ؛ **تاريخ النشر** : 2026/01/15

الملخص

تَتَناول هذه الدِراسة إشكالية الطبع والصَنعة في النَقد العَرَبي القَديم، بِوصفِها من القَضايا الجَوهَرِية التي شُيّدَ عَليها تَصوُر النُقاد لِطَبِيعة الإبداع الشعري ومَصدر التَميّز فيه. وتسعى الدِراسَة الحالية إلى التَأصيل المَفهوُمِي لهذين المُصطَلَحين وبَيان تَطوُرَهُما الدلالي والسياقي في كِتابات النُقاد العَرب كـ (الجاحظ، ابن قتيبة، الآمدي، ابن رشيق). وتَعتَمد الدِراسة الحالية المَنهج التَحليلي التَاريخي مع تَوظيف المَنهج المُقارن عند الحاجة بهدف تَتَبُع تَمثُلات النُقاد لِمَفهوم الطبع بإعتِباره مَوهبة فِطرية في مُقابل الصَنعة التي تَرمُز إلى الكدّ الفَني والتَكلف المَقصود. وتكمُن مُشكلة البَحث في مُحاولة فَهم المُوازَنة النَقدِية التي أقامَها النُقاد بين هذين القُطبَين، وبَيان مَدى إنحيازُهم لِطرفٍ دون الآخر، وأثَر ذلك في أحكامهم على الشعراء ونصُوصهم. وقد خَلُصّت الدِراسة إلى إن النَقد العَربي قديماً كان يَميل في كَثِير من أطروحاتِه إلى تَقديم الطَبع على الصَنَعة، بإعتِبار الفِطرة عَلامة على عَبقرية الشاعر وصِدق إبداعِه، وإن لم يُلغِ ذلك دور الصَنعة بِوصفِها ضَرورة فَنية. كما تَضَمنت الدراسة تحليلاً لِعدد من النصوص النَقدية والشعرية التي تَجلّت فيها هذه الإشكالية.

الكلمات المفتاحية: الطبع، الصنعة، النقد العربي، الفطرة، التكلّف.

Abstract

This study explores the critical issues of natural talent (taabʿ) and craftsmanship (sanʿa) in classical Arabic literary criticism, as foundational concepts that shape perceptions of poetic creativity and excellence. It seeks to establish a conceptual and historical grounding of these terms, tracing their semantic evolution and contextual usage in the works of prominent Arab critics such as al-Jāḥiẓ, Ibn Qutayba, al-Āmidī, and Ibn Rashīq. The research employs an analytical-historical method, with a comparative approach when necessary, to investigate how critics perceived ṭabʿ as innate genius versus ṣanʿa as deliberate artistic effort. The central problem lies in examining how critics balanced these two poles and whether they favored one over the other in evaluating poets and their works. The study concludes that classical Arabic criticism often privileged natural talent over artifice, viewing it as a sign of authenticity and poetic brilliance, while not dismissing the importance of technical refinement. The research includes an analysis of critical and poetic texts that embody this dichotomy.

Keywords: Affection, Arabic Criticism, craftsmanship, innateness, sanʿa, tabʿ

الاستشهاد بالمقال

ثائر محمد إبراهيم الملكاوي و زيد "محمد خضر" أحمد الدباغ (2026). بين الفطرة والتكلف؛ دراسة لتأصيل مهنة الطبع والصنعة في النقد العربي القديم. *مجلة أطراس*، *7*(1)، 730-745. https://doi.org/10.70091/Atras/vol07no01.49.

Emails: [1]Thaeralmalkawi555@gmail.com

Atras Journal/ 2025, published by the University of Saida, Dr. Moulay Tahar, Algeria
This is an Open Access Article under The CC BY-NC 4.0

مقدمة

وردت قضية الطبع والصنعة كثيرًا عند النقاد العرب القدامى ودورهما الفعال في عملية انتاج النصوص الأدبية ذات الصبغة الإبداعية. وتناولوها بالدراسة والبحث، حتى نكاد نقول إنَّه لا يخلو كتاب من كتب النقد إلا وتحدث عنها. ورأوا أنَّ الطبع وحده لا يكفي في انتاج العمل الإبداعي وأنَّه لابدَّ من وجود عامل آخر يسهم في رفعة العمل الأدبي الإبداعي، ويؤدي إلى بروز العمل الأدبي وإظهاره. فالصنعة هي المهارة العملية القادرة على الاتقان والدقة في العمل الأدبي لذلك ارتبطت الصنعة بالطبع ارتباطًا عميقًا، وبوجودهما يتكون العمل الأدبي المتين. وقد دفع النقاد إلى وضع مقاييس لنقد الشعر، فأعطوا صفة المطبوع على من جاء بشعر سهل عن عفو الخاطر، بدون تنقيح أو مِران، وأعطوا صفة المتكلف لمن تكلف في قول الشعر وطريقة نظمه وضبطه وإرساء الزخرفات عليه، وأخيرًا صفة المصنوع لمن نظم شعره ومن ثم أعاد النظر فيه مرة ومرتين فهذبه ونقحه من الشوائب والكدرات.

نلحظ من خلال هذا المقياس النقدي الذي وضعوه نقاد العرب قديمًا أنهم وضعوه بهدف المفاضلة بين الشعراء، والقدرة على تمييز الجيد من الرديء في أشعارهم. ونُشير إلى كثرة الدراسات التي تناولت قضية الطبع والصنعة في الشعر العربي إلا أنَّها قد تناولته من خلال بعض الملامح البسيطة. ومن خلال هذا البحث سنتطرق إلى مفهومي الطبع والصنعة وأبرز علمائهم، وكذلك قضية الصنعة بين الطبع والتكلف وأبرز العلماء الذين تصدوا لهذه القضية.

تتمثل مشكلة هذه الدراسة في التوتر المفاهيمي والنقدي بين الطبع والصنعة في التراث النقدي العربي القديم، وهو توتر يعكس رؤية متباينة لطبيعة الإبداع ومصدر القيمة الجمالية في العمل الأدبي، ولا سيما الشعري منه. فقد أسهم هذا الازدواج الجدلي في تشكيل البنية التقييمية لأحكام النقاد، وتوجيه مسارات الذوق الأدبي. وتكمن الإشكالية المحورية في مدى حضور هذا التقابل في الخطاب النقدي، وحدود تغليب أحد الطرفين على الآخر، وأثره في تصنيف الشعراء وإعادة تشكيل معايير التفوق والقبول الأدبي.

تنطلق الدراسة من فرضية أساسية مفادها أن النقاد العرب القدماء، رغم تباين آرائهم، قد مالوا في الغالب إلى ترجيح كفة الطبع على الصنعة، بوصفه تجلياً للفطرة وصدق الإلهام، مع إقرار ضمني بأن الصنعة ضرورة لا غنى عنها في استكمال الإبداع. وتفترض الدراسة أن هذا التفضيل يعكس رؤية جمالية ذات بعد أخلاقي وثقافي، ارتبطت بمفهوم "الصدق" في التعبير، و"السهولة الممتنعة" في الأداء.

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تعيد النظر في ثنائية مركزية في بنية التفكير النقدي العربي القديم، لم تُدرس بعد بالقدر الكافي من التعمق والتأصيل النظري. كما تسهم في إبراز الأطر المعرفية التي حكمت تقييم الشعر والإبداع، مما يفتح أفقاً لفهم أعمق لمنطق الذوق العربي القديم. وتكتسب الدراسة أهمية مضاعفة في سياق المقارنة بين الرؤية التراثية والإشكاليات النقدية الحديثة المتصلة بالإلهام والتقنية.

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. تأصيل المفاهيم النقدية للطبع والصنعة في التراث العربي.
2. تتبع تطور هذه المفاهيم في ضوء الخطاب النقدي ومواقف النقاد.
3. بيان الأثر الجمالي الذي يترتب على تغليب أحد المفهومين على الآخر.
4. الكشف عن البعد المعرفي والثقافي الكامن في المفاضلة بين الفطرة والتكلّف.
5. تقديم قراءة تحليلية ونقدية لمجموعة من النصوص التي مثّلت هذا الإشكال.

أسئلة الدراسة

1. كيف عرّف النقاد العرب القدماء مفهومي الطبع والصنعة؟
2. ما الحدود الفاصلة بين الفطرة والتكلّف في نظرتهم إلى الإبداع؟
3. هل مال الخطاب النقدي العربي إلى تغليب أحد المفهومين؟ ولماذا؟
4. ما الأبعاد الجمالية والثقافية الكامنة وراء هذا الترجيح؟
5. ما أثر هذه الثنائية في تشكيل معايير التقييم النقدي وتصنيف الشعراء؟

تعتمد الدراسة المنهج التحليلي التاريخي في تتبع المفاهيم وتطورها عبر النصوص النقدية، مع توظيف المنهج المقارن عند الحاجة لإبراز الفروق الدقيقة بين مواقف النقاد والمدارس النقدية. كما تستند إلى قراءة تأويلية تستكشف الدلالات العميقة في النصوص الأدبية والنقدية، بغية الكشف عن الرؤية الجمالية والثقافية التي شكلت العلاقة بين الطبع والصنعة، وقيّدت الحكم النقدي في ضوء هذا التقابل.

الدراسات السابقة

1. "**الطبع والصنعة في الشعر الجاهلي**"، د. ياسين الأيوبي، سنة النشر: 1997، مكان النشر: مجلة مجمع اللغة العربية – دمشق. تناولت هذه الدراسة ثنائية الطبع والصنعة في سياق الشعر الجاهلي، مركزة على تحليل النصوص الشعرية من حيث تلقائيتها التعبيرية وبنيتها البلاغية. وقد أبرزت الدراسة ميل الشعراء الجاهليين إلى الاعتماد على الطبع، بوصفه امتدادًا لحياة البداوة والفطرة، دون الوقوع في التعقيد اللفظي أو التكلّف الأسلوبي. وتفيد هذه الدراسة في تأصيل الجذر الفني للطبع، وتحديد معالمه التاريخية الأولى، مما يثري بحثنا في تتبع التحول من البداهة إلى الصنعة المقننة في المراحل اللاحقة.
2. "**الصنعة الشعرية في النقد العربي القديم:** قراءة في المواقف والرؤى"، د. عبد المجيد زراقط، سنة النشر: 2005، مكان النشر: المجلة العربية للثقافة – تونس، تستعرض هذه الدراسة تصورات النقاد العرب لمفهوم "الصنعة"، مركّزة على المنظور الجمالي والتقني الذي صاحبها، ودرجة تقبّل النقاد للتكلف الفني. تناول الباحث آراء كل من ابن طباطبا، وقدامة بن جعفر، والآمدي، وبيّن كيف اختلفت نظرتهم للصنعة بين اعتبارها ضرورة جمالية، وبين رؤيتها بوصفها عيبًا فنيًا حين تُجاوز حدّها. وتقدّم هذه الدراسة إطارًا نظريًا مهماً لدراستنا، إذ تساعدنا في بناء تصنيف للمواقف النقدية تجاه الصنعة عبر العصور.

3. "**بين الطبع والتكلف في نظرية الإبداع عند الجاحظ**"، د. سناء شقير، سنة النشر: 2011، مكان النشر: جامعة بيروت العربية – قسم اللغة العربية، تسلط الدراسة الضوء على نظرية الجاحظ في الإبداع، من خلال رصده لمفهومي الطبع والتكلف، وعلاقتهما بالبلاغة والتواصل الفعّال. وقد خلصت إلى أن الجاحظ كان يوازن بين الفطرة والمهارة، ولكنه قدّم الطبع على التكلف حين يكون الأخير متصنّعًا بلا روح. وتفيد دراستنا من هذا الطرح في فهم الأساس البلاغي الذي قامت عليه المفاضلة النقدية، وتوسيع دائرة التحليل من النص إلى الفكر النقدي المؤسس.
4. "**الطبع والتطبع: ثنائية النقد عند ابن رشيق القيرواني**"، د. عماد زهير البياتي، سنة النشر: 2014، مكان النشر: مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد، تتناول هذه الدراسة كتاب "العمدة" لابن رشيق، وتُبرز مركزية مفهوم الطبع في نظريته النقدية، مقابل التطبع والتكلف الذي عبّر عنه بصيغ تحذيرية. كما حللت الدراسة شواهد نقدية كثيرة قدّم فيها ابن رشيق معيار الطبع بوصفه دليلًا على "السهولة الممتنعة". وتكمن أهمية هذه الدراسة في إغنائها للمحور التطبيقي في بحثنا، لا سيما في تحليل المواقف الجزئية داخل النصوص النقدية.
5. "**العبقرية الشعرية بين الفطرة والتقنية: دراسة في مفهوم الإبداع**"، د. عبد الكريم سليم، سنة النشر: 2018، مكان النشر: مركز دراسات الأدب العربي – القاهرة، تركّز الدراسة على تحليل مفهوم "العبقرية" بوصفه نتاجًا لتفاعل بين الطبع والتقنية، مستخدمة منظورًا فلسفيًا وجماليًا لتفسير بنية الإبداع الشعري. وقد وظّف الباحث نصوصًا نقدية من عصور مختلفة، وربطها بالتحولات المعرفية في بنية الذوق الجمالي. وتمثل هذه الدراسة إضافة هامة لبحثنا من حيث النظرة التأصيلية الشاملة، والتي تُعيننا على تجاوز التناول الثنائي نحو مقاربة جدلية أكثر عمقًا للمفاهيم.

الإضافة العلمية الجديدة

تكمن الإضافة العلمية لهذه الدراسة في تقديم مقاربة تأصيلية ومفاهيمية جديدة لقضية الطبع والصنعة، تتجاوز الطرح التقريري أو الملاحظات الهامشية، نحو بناء تصور نقدي شامل يعيد ترتيب أولويات الفهم النقدي العربي القديم. كما تبرز الدراسة تداخُل البعد المعرفي بالبعد الجمالي في تصور النقاد للإبداع، وتطرح قراءة نقدية لثنائية الطبع والصنعة بوصفها انعكاساً لرؤية فلسفية ضمنية حول الفن، والموهبة، والعمل، وهي قراءة يمكن أن تُسهم في إثراء الجدل المعاصر حول مفهوم الإبداع بين الفطرة والاكتساب.

مصطلح الطبع في التراث النقدي الأبي العربي

مفهوم الطبع: Natural Aptitude (Talent)

الطبع صفة فطرية تولد مع الإنسان وتُصقل بالثقافة والخبرة، وهي تجسيد لمجموعة من الصفات النفسية تمكن الشخص من أداء دوره في الحياة على نحو مناسب (قلقية، 1976، ص 274). وفي معناه المعجمي نجدُ أَنَّه قد

عُرف في معجم لسان العرب لابن منظور: "الطبع والطبيعة: الخليقة والسجية التي جُبل عليها الإنسان" (ابن منظور، 1993، ص 272324). وأيضًا نجد الجواهري قد عرّف مفهوم الطبع في الصحاح، فقال: "السجية التي جُبل عليها الإنسان وهو في الأصل مصدر، والطبيعة مثله، وكذلك الطباع" (الجوهري، 1987، ص 1252). والتطبع يكون بخلاف الطبع ويُعنى الأول بالكسب اكتسابًا. وقد أشار الزمخشري في كتابه أساس البلاغة إلى أنَّ العرب استخدموا هذا المصطلح بصورة مجازية، حيث ورد عنه أنهم كانوا يقولون: هو مطبوع على الكرم، وكذلك هذا الكلام عليه طبائع الفصاحة (الزمخشري، 1998، ص 594). وقد أولى نقاد العرب الأهمية لمصطلح "الطبع" في دراستهم لعملية الإبداع الفني في الشعر، وقد عدَّ القاضي الجرجاني الطبع أحد عناصر إبداع الشعر الأساسية، ومفهوم الطبع عند القاضي مفهوم متميز، فهو يرى أن الطبع الجيد (المجالي، 2016، ص 145). هو "المهذب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجَلَته الفطنة، وأُلهِمَ الفصل بين الرديء والجيد، وتصوَّر أمثلة الحسن والقبح" (الجرجاني، 1966، ص 274).

الطبع عند أبرز علماء العرب

ونُشير إلى موقف الحجاج بن يوسف الذي يتفق مع موقف النقاد القدامى على أنَّ الشاعر المطبوع هو الذي يقول الشعر على سجيته دون تكلف، وذلك عندما قال له أحد البلغاء سائلاً عن ولد ملهب: "هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها"، فأجابه الحجاج: " أقسمت عليك هل رؤَأت في هذا الكلام"، فنفى الرجل ذلك، فقال الحجاج لجلسائه: "هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع" (ابن عبد ربه، 1983، ص 230). وقد برز العديد من العلماء في قضية الطبع، كان من أبرزهم الأصمعي، والجاحظ، ابن قتيبة، سوف نقف عند كل واحد منهم شرحًا:

أولاً: الطبع عند الأصمعي (123هـ / 741م)

نلحظ أنَّ الأصمعي من النقاد الذين كانوا ينظرون إلى الشعر المطبوع على أنَّه يأتي من الشاعر بشكلٍ فطريّ كيفما جاء فيكون منه الرديء والجيد والجميل والقبيح، ومن الأمثلة أنَّ الأصمعي يتعقب العديد من الشعراء ومنهم الحطيئة، وقال حين سؤل عن ذلك: وجدت شعره كله جيدًا فدلني على أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع؛ إنَّما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه: جيده على رديئه (ابن جني، 1952، ص 282). وقد ذهب الأصمعي إلى أنَّ الشاعر المطبوع هو من ينظم شعره عن عفو خاطر وإلهام فكر، دون تكليف أو تنقيح أو تدقيق لكلماته، أي أنَّ مقياس الطبع عنده عدم التساوي في جودة الشعر، فالشاعر المطبوع يكون في شعره الجيد والرديء، وهذا التفاوت يُعدُّ عند الأصمعي العلامة المميزة للطبع، فقد وصف الحطيئة بأنَّه عبد لشعره؛ لأنه وجد شعره منتخبًا متخيرًا.

مدرسة عبيد الشعر ودورها في النقد

نلحظُ مصطلح (المدرسة) ليس وليد اليوم في تاريخ الشعر العربي، وإنَّما يمتد جذور هذا المصطلح في الأدب العربي إلى ما قبل الإسلام، وتُعدُّ مدرسة عبيد الشعر من أقدم المدارس النقدية، وقد أطلقها الشاعر الأصمعي، وقد عُرف لزهير مدرسة شعرية خاصة به، وهذه المدرسة كان زهير ينقح فيها شعره، فكان ينظم القصيدة في أربعة

أشهر، ومن ثم يهذبها في أربعة أشهر وبعد ذلك يرسلها في أربعة أشهر، لذلك عرفت مدرسته بمدرسة عبيد الشعر؛ لأن أصحاب هذه المدرسة أخذوا على أنفسهم تنقيح أشعارهم وإصلاحها. وقد اشتركوا أصحاب هذه المدرسة في عدة خصائص شعرية منها: كثرة الصور الشعرية، الإكثار من ذكر الأمكنة، والعناية بفخامة الألفاظ، والاهتمام بفن التقسيم. وإنَّ أصحاب هذه المدرسة النقدية قد جعلوا من الشعر صناعة لهم، وصناعة الشعر يقصد بها التهذيب والتنقيح وليس التكلف، فقد كانوا ينظرون إلى أشعارهم التي نظمتها سجيتهم السليمة بالنظر والتمحيص والمراجعة، وبالنظر في شعرهم نجد أنهم مطبوعون، وبالمراجعة هم ينقحون، وهذا دليل واضح على مدى اهتمامهم بالشعر كتابةً وتمحيصًا. وقد امتازت مدرسة عبيد الشعر بعدة أمور، وهي مدرسة قديمة في الأدب العربي كما أشرنا. ولابُدَّ من معرفة أنَّ هناك فارقٌ بين المدرسة القديمة والحديث في الأدب العربي، فالحديثة تمتاز بمعاصرة معظم روادها، وتوافقهم في الجوانب الفكرية والشكلية والتنظيرية وحتى على مستوى الاتجاهات الشعرية والإنتاج. ونورد بعد الأمور الخاصة بمدرسة عبيد الشعر، ومنها:

أولاً: تمتد مدرسة عبيد الشعر منذ العصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الأموي، وهذا دليل على امتدادها الزمني. وقد بدأت بالطفيل الغنوي، ثم أوس بن حجر، ثم زهير بن أبي سلمى، ثم كعب بن زهير، ثم الحطيئة، ثم هدبة بن الخشرم، ثم جميل بن معمر، ثم كثير عزة.

ثانيًا: توارث خصائص الشعر بين أفراد هذه المدرسة ومنها الرواية.

ثالثًا: تناول النقاد وأصحاب الأدب لها وحديثهم عنها دون تقييدها بمصطلح (المدرسة).

أهم الأسس النقدية في مدرسة عبيد الشعر

- الأصمعي أول من التفت إلى مدى أهمية التفرغ للشعر وانقطاع الشعراء له والثناء على اهتمامهم به تنقيحًا وتهذيبًا.
- مسألة رواية الشعر ونقله بعضهم لبعض، إذ يروي التلميذ شعر أستاذه، فقد كان زهير بن أبي سلمى أول من عرفت روايته عن أستاذه أوس بن حجر والطفيل الغنوي.
- إطلاق الألقاب على بعض شعراء مدرسة عبيد الشعر، حيث يذكر الأصمعي في كتب الأدب وصفًا لزهير بن أبي سلمى والحطيئة، فيصفهما بعبيد الشعر، ويلقب الطفيل الغنوي وهو رأس هذه المدرسة بلقب المحبّر.

ونُشير إلى اللبس الذي وقع فيه النقاد عند نسبة القصائد إلى أصحاب هذه المدرسة، وذلك بسبب رواية شعراء مدرسة عبيد الشعر لبعضهم البعض، وأيضًا تشابه بعضها البعض. ويدلل على ذلك رأي الدكتور محمد لطفي الصباغ، فيقول: "إنَّ مما يقوي نظم هؤلاء الشعراء في مدرسة واحدة ما رأيته خلال دراسة دواوينهم من تشابه حتى بلغ الأمر بالرواة إلى إدخال شعر بعضهم في شعر بعض، إنَّه تداخل ما كان ليقع لولا التشابه الشديد الذي يسود شعرهم، فقصيدة واحدة تراها في ديوان كعب وأبيه زهير، وهي (الجاحظ، 1955، ص 7):

أبت ذكرةٌ من حب ليلى تعودني عياد أخي الحمى إذا قلتُ أقصرا

هذه الطريقة الخاصة التي امتاز به أصحاب مدرسة عبيد الشعر، وقد اعتمدوها وداموا عليها في رواية الشعر، وهذا دليل على عنايتهم بفن القول والتنقيب مما يزيد من تفوق الشاعر، وليس دليلَ تفوقهم على غيرهم من أصحاب المدارس الشعرية.

ثانيًا: الطبع عند الجاحظ (159 هـ -255 هـ)

لا بُدَّ من الانتباه إلى أنَّ مصطلح الطبع عند الجاحظ مقارب لِما أوردناه عند الأصمعي، وقد فسر الجاحظ مصطلح الطبع بقوله: "ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتًا، وزمنًا طويلاً، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهامًا لعقله، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره، إشفاقًا على أدبه، وإحرازًا لما خوله الله تعالى من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد بالحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلًا حينئذ وشاعرًا مفلقا" (الجاحظ، 1955، ص 7). فالجاحظ قد تحدث عن عبيد الشعر ووصفهم بأنهم يغتصبون الألفاظ ويلتمسون قهر الكلام، وينظر إليهم على أنهم أصحاب الصنعة وتكلف وليسوا كالشعراء المطبوعين، الذين ينطقون بروائع الأشعار بسهولة ويُسير، فتنطلق الكلمات والتعابير من أفواههم بسهولة فيحيكون روائع الكلمات والأشعار دون جهد وتكلف. ويُشير الجاحظ إلى ذلك بقوله: "لولا أنَّ الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ؛ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوًا ورهوًا وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً" (الجاحظ، 1955، ص 13). إذن الشاعر المطبوع عند الجاحظ هو من يكون بمقدوره أن يقول الشعر دون إجهاد لفكره أو كما اسماه الجاحظ قهر للألفاظ، متى هيأت نفسه لذلك.

ثالثًا: ابن قتيبة (213هـ - 276هـ)

يُعدُّ ابن قتيبة من النقاد القدامى الذين أولوا أهمية كبيرة للشعر المطبوع، وقد اشترطوا فيه أن يأتي عن عفو خاطر دون تكلف وأن يمتاز بالجودة العالية ونفحة من الحسن والجمال، وأن يبتعد صاحبه عن الحشو ورديء الكلام وعدم اتزان القوافي وغريب الألفاظ. والشاعر المطبوع في رأي ابن قتيبة هو: "من سمح بالشعر واقتدر القوافي وأراك في صدر بنته عجزه وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي العزيزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر" (ابن قتيبة، 1966، ص 90). الطبع عند ابن قتيبة يعني القدرة على نسج الأبيات والاقتدار على حبك الأقوال بموهبة وغريزة دون تكلف أو تصنع، ولابُدَّ ان يتصف بالجودة والقوة والجمال. ويُشير ابن قتيبة إلى قضية التفاوت بين الشعراء في مسألة الطبع، فقد يسهل على أحد الشعراء قول الشعر في غرض ما ويصعب في آخر، وقد أورد ابن قتيبة المثال على ذلك بامتلاك أحد الشعراء الطبع والسهولة على قول الشعر في الهجاء بينما يصعب على نفس الشاعر قول الشعر في المديح، وقد يسهل على آخر قول الشعر في الرثاء ويصعب عليه في الغزل ونحوه، فيشير ابن قتيبة إلى ذي الرمة الذي يوصف بأحسن الناس تشبيهًا، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وأيضًا الفرزدق الذي كان زيرًا للنساء ومع ذلك نجده لا يحسن التشبيب (ابن قتيبة، 1966، ص 90). وإنَّ

الشعر – في رأي ابن قتيبة – عند الشعراء المطبوعين متفاوت، إذ يحسن شعر أحدهم إذا كان يجيده ويوافق رغبته، ويقبح ويعتريه التكلف إذا جاء فيما لا يرغبه الشاعر أو لا يجيده، أو أن يكون قد اضطر في موقف ما لقول الشعر خارج إرادته، كأن يداري سفيه، أو يجامل حاكمًا، ومن ثم يفقد الشاعر شعريته الخاصة به الممتلئة بالعاطفة الصادقة، ويصبح شعره مجرد من هذه العواطف والمشاعر، وعلى المتلقي جانب مهم في إبراز جمال الشعر المطبوع من قبحه. إنَّ عرض آراء النقاد (الأصمعي – الجاحظ – ابن قتيبة) نستنتج أنَّ الشاعر المطبوع هو من "لا يكد ذهنه في نظم القصيدة ولا يتكلف، وإنَّما تنساب القصيدة انسيابًا من طبعه الحسن وذوقه الرقيق" (مطلوب، 1976، ص 352).

مصطلح الصنعة في التراث النقدي العربي

أولًا: مصطلح الصنعة

قال الجواهري: "والصناعة حرفة الصانع وعمله الصنعة" (الجوهري، 1987، ص 1254). وقد رُبطت الصنعة والصناعة بالشعر فالعديد من المؤلفين أطلقوا على مؤلفاتهم أسماء مرتبطة بالصنعة والصناعة والشعر مثل: صناعة الشعر وكتاب الصناعتين، وغيرها. وقد تعاملوا مع الشعر كحرفة من الحرف، وفي ذلك يقول ابن سلام في تعريف الصنعة: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان" (الجمحي، 1976، ص 5). فالشعر يعتبر صنعة الشاعر ومهمته. إنَّ صناعة الشعر من أهم المواضيع التي تدارسها النقاد العرب القدماء وتناولوها في دراستهم، حيث كادوا يتفقون على أن الشاعر يعود إلى شعره وينظر فيه فيهذبه وينقحه ويبدل في قوافيه ويغير في عباراته حتى تنساب وتصبح متناسقة متسلسلة (بدوي، 2003، ص 485). ووضعوا شروطًا لابد منها لإحكام الصنعة في الشعر وهي: "جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاء إلى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها (الآمدي، 1976، ص 426).

الصنعة عند أبرز العلماء القدماء

أولاً: الصنعة عند ابن سلام الجمحي (140هـ / 231هـ)

إنَّ ابن سلام الجمحي أول ناقد عربي اعتبر الشعر صناعة قولية، وأشار إلى ذلك بقوله: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة ولا وزن، دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون، ولا مس ولا طراز ولا وسم ولا صفة. ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسه وذرعه، حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه. وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر، حسنة العين والأنف جيدة النهود، ظريفة اللسان،

واردة الشعر. فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدًا على هذه الصفة ...، ويعرف العلماء ذلك عند المعاينة والاستماع له، بال صفة ينتهي إليها، ولا علم يوقف عليه. وإنَّ كثرة المدارسة لتعدي على العلم به. فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به" (الجمحي، 1976، ص 5- 7).

هذه المدونة النقدية تمثل أول المدونات النقدية التي تعرضت لعلاقة الشعر مع الصناعات، مما اكسبها أهمية كبيرة بين النقاد والدارسين، فقد تحدث ابن سلام الجمحي فيها عن قضية الاحتيال التي طالما شغلت تفكيره، هذه القضية التي تتعلق بمسألة توثيق الشعر وصحة نسبته إلى صاحبه، والزمن الذي قيل فيه، وبالتالي نتجه إلى مسألة تمييز الشعر الصحيح من المنتحل. وقد أشار ابن سلام الجمحي إلى الناقد المثقف الذي يطلع على سرائر الشعر وقدرته على التمييز والكشف، وفرق بين الناقد للشعر والناقد لأمور الصناعات وما إلى ذلك من هذه الأمور. نجدُ النظرة العميقة المتأملة في فكر ابن سلام الجمحي فيما يخص فكرة الصناعات، وقد أشار كذلك إلى فكرة كون الشعر ثقافة وصناعة، وقد أورد حديثًا عن صنعة الشعر وغيرها من الصناعات التي كانت شائعةً في عصره، وأوجدَ أيضًا قاسمًا مشتركً بين صنعة الشعر وغيرها من الصناعات المادية، فصنعة الشعر قد تكون صحيحة في نسبتها أو مفتعلة، والحال ماثل في الصناعات المادية التي يكون ما فيها كاللؤلؤ والياقوت ومنها ما يكون في قمة الرداءة. إنَّ ابن سلام الجمحي قد جعل للشعر صانعة وثقافة، فالشعر عنده يبدعهُ الحذاق من الشعراء، ما يجعل العامة من الناس غير قادرين على معرفة صحيح الشعر من مفتعله، في يكون النقاد واهل الشعر على مقدرة في فعل ذلك بمجرد معاينتهم للشعر أما سماعيًّا أو قراءةً، كل ذلك بما يمتلكونه من مهارة في صنعة الشعر (الجمحي، 1976، ص 22).

ثانيًا: الصنعة عند عبد القاهر الجرجاني (400 هـ -471 هـ)

نلحظ أنَّ كتب الجرجاني قد حلفت بالنصوص النقدية التي تربط الصنعة بالشعر، وتقارن بين الصناعات والإبداع الشعري، وبين عمل الصانع والشاعر، فقد تأثر الجرجاني بسابقيه من النقاد الذي اطلع على مدوناتهم، وقد تحدث في كتبه عن العلاقة بين الشعراء بين الشعر والصناعة، من خلال الحديث عن "الصورة" والصياغة والتصوير، ويحمل مفهوم الصورة عنده دلالتين: الأولى تدل على التقديم الحسي للمعنى عن طريق التشبيه والاستعارة والتمثيل، ويظهر لك بصورة جلية في كتابه (اسرار البلاغة)، والثانية تدل على الشكل العام لكلام البليغ وطريقته في الصياغة، وهذا ما نراه في كتابه (دلائل الإعجاز) (عصفور، 2021، ص 278). ونلحظ انَّ الجرجاني يضع مفهومَ التصوير في إطار دلالة الصياغة، وبالتالي البحث عن الصنعة الجميلة والصياغة البديعة، التي تجعل الكلمات شعرًا، وكلما زاد جمال الصياغة أصبحت الكلمات أقرب أكثر للشعر، وكما لا يمكن أن نحكم على جودة خاتم بناء على المادة الخام التي صنع منها، وليس كونه كمنتج نهائي (خاتم)، بل كونه ذهب أو فضة، فهكذا القصيدة لا يتم تحديد مزية الشعر بناء على معانيه، وفي حال فعلنا ذلك لا يكون تفضيلاً من ناحية كونها شعرًا بل بمثابة معاني فقط (حمودة، 2006، ص 278).

إنَّ عملية التشكيل الشعري عند الجرجاني متعلقة بالصناعات الأخرى كأشكال الحلي، فكلاهما يقوم التفاضل فيما بينها بناءً على مدى إحكام العمل ودقة صنعته، ولهذا نجد أن قصيدة ما تعجبنا دون أخرى مع أن كلاهما تتناولان موضوعًا واحدًا، لذا يقدم لنا الجرجاني موقفًا نقديًا لا يقل في حداثته ونضجه عن أي موقف نقدي آخر مبينًا "أن سبيل أشكال الحلي، كالخاتم والشنف والسوار فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجًا لم يعمل صانعه فيه شيئًا أكثر من أن أتي بما يقع عليه اسم الخاتم إن كان خاتمًا...وأن يكون مصنوعًا بديعًا قد أغرب صانعه فيه. كذلك سبيل المعاني، أن ترى الواحد منها غفلاً ساذجًا عاميًا موجودًا في كلام الناس كلهم، ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني، فيصنع فيه الصنع الحاذق، حتى يغرب في الصنعة، ويدق في العمل، ويبدع في الصياغة" (الجرجاني، 1992، ص 422، 423).

ثالثًا: الصنعة عند أبي الهلال العسكري (... هـ – 395 هـ)

إنَّ مفهوم صناعة النص الشعري عند أبي هلال العسكري بالنظر في كتابه (الصناعتين الكتابة والشعر)، حيث أورد فيه العسكري مفهومه لصناعة الشعر بناء على رؤية تعليمية، فقد أفرد فيه باب خاص بصناعة الكلام بعنوان (في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ)، حيث قال فيه: "فإذا أردت أن تصنع كلامًا فأخطر معانيها ببالك وتنوق له كرائم، واجعلها على ذكر منك، ليقرب تناولها، ولا يتعبك تطلب ها، واعمله ما دمت في شباب شاطك" (العسكري، 1999، ص 123). فقوله: " "تصنع" بدلاً من "تقول" يدل على أن الشعر عنده خاضع لمبدأ الصناعة والتحسين، التجويد، وهي محصورة في باب الصناعة التي لها أسسها، وكلمة "صناعة" التي أوردها العسكري مرادفة لكلمة فن للفارقة بينها وبين العلم (طبانة، 2000، ص 125). وقد وضع العسكري مراحل لصناعة النص الشعري، وقد قسمها إلى ثلاثة مراحل، وهي:

1- مرحلة ما قبل التنفيذ: والتي تتمثل في اختيار فكرة القصيدة.

2- مرحلة التنفيذ: والتي تتمثل في اختيار الشاعر للألفاظ والمعاني، والوزن والقافية.

3- مرحلة التهذيب والتنقيح: وهي آخر مراحل صناعة الشعر إذ بعد انتهاء الشاعر من نظم قصيدته، يُعيد النظر فيها، فيقوم بتنقيحها وإصلاحها بما يلزم (الأرباع، 2016، ص 45). إنَّ الصناعة عند العسكري هي فنٌّ وحرفةٌ يهدف الشاعر عن طريقها إلى تحسين صنعته، كما وضع العسكري توجيهات للشاعر بحيث يستطيع من خلالها صناعة كلامه، ومنطلق ذلك من خلال البعد التعليمي الذي أقام عليه العسكري كتابه "الصناعتين". وقد تأثر العسكري بقدامة وغيره بمسألة ارتباط الصناعة بالمنطق، قال: "ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا، وفيلسوفًا عظيمًا، ومن تعود حذف فضول ومن تعود دف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، ونظر في صناعة المنطق على جهة صناعة المبالغة فيها، لا على جهة الاستطراف والتطرف لها" (العسكري، 1999، ص 24).

مصطلح الصنعة بين الطبع والتكلف عند أبرز علماء العرب

مصطلح الصنعة بين الطبع والتكلف

لعرض مصطلح الصنعة وإيضاحه لابُدَّ من الإشارة إلى مفهوم التكلف، حيث قال ابن منظور: "والمكتلف: العريض لما لا يعينه...، وكلفه تكليفًا: أي أمره بما يشق عليه. وتكلفت للشي: تجشمه على مشقة وعلى خلاف عادتك" (ابن منظور، 1976، ص 307). وقد وصف الشاعر الذي يحمل نفسه في قول الشعر أو الخروج عما هو متعارف في صناعة الشعر بالمتكلف الشعري.

وعند التدقيق في مصطلح الصنعة في كتب النقاد القدماء، نجدهم قد تفاوتوا في وضع مدلولٍ خاصٍ ودقيقٍ لمصطلح الصنعة، وهذا التفاوت مرجعه تعدد وجهات النظر فيه، حيث خلط بعضهم بين مصطلح التكلف ومصطلح الصنعة فجعلوهما مترادفين، فقد خلط ابن قتيبة بينه وبين صناعة الشعر وتنقيحه، حيث قال: "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر، كزهير والحطيئة" (ابن قتيبة، 1976، ص 77، 78). حيث إنَّ الشاعر إذا أعاد النظر في شعره وقومه وهذبه فهو متكلف. أمَّا الشاعر المطبوع فهو من يقول الشعر عن عفو الخاطر وسرعة البديهة دون إعداد، وافقه في ذلك شوقي ضيف حيث بدوره استخدمهما بدلالة واحدة، حيث قال: "كان التكلف ظاهرة عامة في الشعر القديم، أو بعبارة أخرى كانت الصنعة مذهبًا عامًا بين الشعراء" (ضيف، 2005، ص 24). ونلحظ أنَّ مصطلح التكلف ينفصل عن مصطلح، ويأخذ مفهومًا آخر غيره بعد ملازمته له، وبدأ يترادف مع كلمات أخرى مثل (التصنع) الذي يعني الغلو والتكلف والمبالغة (فتاتيت، 1999، ص 102). فإذا نظرنا في قول أبي هلال العسكري نجد أن التكلف تبلور معناه عنده فأتانا بتعريف مفصل له، حيث يقول: "التكلف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرايق طلبه بالسهولة، فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد، وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلف" (العسكري، 1976، ص 55). وهذا دليلٌ واضحٌ على أنَّ الصعوبة والالتفاف حول المعنى، حتمًا يقودان إلى التكلف، والشاعر المبدع عنده من يأتي بالسهل الممتنع دون مراوغة أو صعوبة، أي أن الصنعة لا تدخل عنده في باب التكلف، لأنها تعتبر من ضمن آليات الشاعر العبقري الذي يجيد قول أبياته ولا يتكلفها، فالصنعة يلهم بها الشاعر إلهامًا كما يلهم بمادة الشعر نفسها، لهذا لا تظهر في الصنعة الموهوبة آثار التكلف (هدارة، 2021، ص 600).

ونجدُ عبد القاهر الجرجاني قد أضاف إلى مفهوم التكلف معنى آخر غير العجز وادعاء ما لا يستطاع، فالتكلف عنده هو: أن يسرف الشاعر في البديع دون حاجة (الجرجاني، 1991، ص 15). أي أن التكلف هو التصنع الذي هو غير الصنعة أو الصناعة، وعليه يكون الطبع محمود مطلوب، والصنعة مقبولة، والتصنع أو التكلف مذموم مردود (فتاتيت، 1999، ص 102). إنَّ الشعر كما يرى ابن رشيق "مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً، وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفًا تكلف أشعار المولدين؛ لكن وقع عليه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عدوًا، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف: يصنع القصيدة ثم يكرر

نظره فيها خوفًا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة (القيرواني، 1981، ص 136). إنَّ الصنعة تدخل في باب التكلف وأخرى في باب الطبع، والصنعة المرجوة هي التي تدخل في باب الطبع؛ بهدف التثقيف والتنقيح، فالشعر لا يعتبر تدفق تلقائي يكون فيه الشاعر مستسلمًا لسجيته؛ بل هو ضرب من المكابدة والمعاناة، حيث لا يقف الشاعر بما خالج فكره للوهلة الأولى؛ بل هو تأمل بعين بصيرة تسقط منه وتضيف بما يخرجه على أتم وجه (العاكوب، 2002، ص 35).

اختلف النقاد في مفهوم الطبع والتكلف، وكذلك اختلفوا في مفهوم الصنعة، واعتبروا شعراء الصنعة عبيدًا للشعر، واعتبر البعض الصنعة التي تعني في تهذيب النص تنقيحه، مرحلة ضرورية من مراحل العمل الأدبي، واعتبرت مكملة للطبع في الشعر، يقول ابن طباطبا: "وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه، فمن تعصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبأن الخلل فيما نظمه، ولحقته العيوب من كل جهة" (ابن طلاطبا، 1982، ص 9). وقد جعل البعض زخرفة لفظية ومحسن بديعي مما هو أقرب إلى التكلف، فالشاعر الذي يملأ شعره بالزخارف والمحسنات يعد شاعرًا متكلفًا (طبانة، 2021، ص 488).

الصنعة بين الطبع والتكلف عند أبرز العلماء

أولاً: ابن طباطبا العلوي (322 هـ –9343 هـ)

ابن طباطبا من العلماء الذين ينظرون إلى الشعر على أنه علمًا أو ما يطلق عليه "العلم بالشعر"، ويرجع ذلك لما ساد في زمنه من العلوم وتصنيفها، وقد برزت فكرة اعتبار الشعر علمًا عنده من اقتناعه بأن نظم الشعر عمل عقلي خالص بعيدًا عن الإلهام، بل يكتب بقصدية، فقد وضع عدة خطوات يمكن من خلالها تعلم نظم الشعر، كما أنه ربط بين الشعر والصناعة، لتصبح عملية نظم الشعر مقرونة بفكرتين: الأولى الجهد الصناعي الخالص للشعر، والثانية حضور العقل الواعي الموجه في عملية النظم، الذي سماه "كمال العقل الذي تتميز به الأضداد" وكمال العقل هنا يلوح إلى غاية الصنعة التي تتمثل في الإبداع الشعري والصناعي (عصفور، 2021، ص 11). وتقوم عملية صناعة الشعر عنده على مراحل متتابعة، أولها مرحلة التفكير في المعنى، فإذا أراد الشاعر نظم شعره بلور المعنى المراد فيفكره نثرًا، وجهز الألفاظ التي تلائمه، والقوافي التي تناسبه، والوزن الذي يسلس له، ثم تبدأ مرحلة الصياغة فينتقي من الألفاظ ما يطابق معانيه، فيثبت كل بيت يحصله، ثم يجمع بين الأبيات، وأخيرًا يضع القصيدة في صورتها النهائية باتساق وتسلسل أبياتها، ثم يصلح ما فيها من أخطاء فينقحها ويهذبها (ابن طباطبا، 1976، ص 11).

ثانيًا: بشار بن برد (96 هـ – 168 هـ)

يُعدُّ بشار بن برد من الشعراء الذين فرقوا بين الطبع والتكلف والصنعة، وعرف كل واحد منها عندما سئل عن السبب الذي يمكن وراء تقدمه على أقرانه في إبداع الشعر، فأجاب قائلاً: "لأني لم أقبل كل ما توره على قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات، فسرت إليها

بفكر جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وانتقيت حرها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت عن متكلفها، ولا والله ما ملك قيادي الإعجاب بشيء مما أتى به" (القيرواني، 1976، ص 173). وقد فرق بشار بن برد بين الشعر المصنوع والشعر المطبوع والشعر المتكلف، وذكر أن الشعر المنقح هو أفضل الأنواع. حيث ذكر أن الشعر المطبوع عنده ما أوردته القريحة وما ناجاه الطبع، أما الشعر المصنوع هو إحكام المعادن واللطائف والسير إليها بغريزة قوية وفكر جيد، وأما الشعر المتكلف هو ما لابد من الابتعاد عنه وتجنبه، وقد أيده في ذلك بعض النقاد عندما قال: "والكلام الجيد الطبع مقبول في السمع، قريب المثال، بعيد المنال، أنيق الديباجة، رقيق الزجاجة، يدنو من فهم سامعه كدنوه منهم. والمصنوع: مثقف الكعوب، معتدل الأنبوب، يطرد ماء البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته كم يجول السحر في الطرف الكحيل، والأثر في السيف الصقيل، وحمل الصانع شعره على الإكراه في التعامل، وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني، يعني آثار صنعته، ويطفئ أنوار صيغته، ويخرجه إلى فساد التعسف، وقبح التكلف... وأحسن ما أجري إليه، وأعول عليه، التوسط بين الحاليين، والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة" (القيرواني، 1953، ص 838).

الخاتمة والنتائج

في ختام هذه الدراسة، تتبدّى قضية الطبع والصنعة في النقد العربي القديم بوصفها إحدى الثنائيات الجدلية التي لم تكن مجرّد مفاهيم بلاغية أو تقييمية، بل كانت تعبيرًا عميقًا عن رؤية حضارية وفلسفية متكاملة للإبداع واللغة والموهبة. فالطبع، كما رسّخه النقاد العرب، لا يُقصد به مجرد الفطرة الغريزية أو السليقة اللغوية الخام، بل هو استعداد نفسي وملكة داخلية تتفاعل مع الذوق اللغوي والخبرة الثقافية، وتولد عنها قدرة تلقائية على إنتاج القول الجميل دون تكلف أو عسر. أما الصنعة، فهي ليست بالضرورة دلالة سلبية على التصنع، بل تشير في أصلها إلى الجهد الفني الواعي، والقدرة على تهذيب العبارة وتجويد المعنى وتنظيم الإيقاع اللفظي، وهي بذلك تمثل بُعدًا مهنيًا وتقنيًا لا يُستغنى عنه في أي عمل أدبي متكامل.

لقد أدرك النقاد العرب . ومنهم الجاحظ، وقدامة، وابن رشيق، والآمدي . أن العلاقة بين الطبع والصنعة ليست علاقة تقابل تقصيري، بل علاقة جدلية تكاملية، إذ لا غنى للطبع عن الصنعة كما لا تُغني الصنعة وحدها عن الطبع. فالإبداع الأصيل هو ما انبثق عن موهبة فطرية أصيلة، ثم صقلته الممارسة الواعية والدُربة الفنية. وقد انقسم النقاد في مواقفهم بين من قدّم الطبع واحتفى بعفوية القول وسهولة التعبير، معتبرًا الصنعة عبئًا إن طغت على الطبع، وبين من رأى في الصنعة ضرورة لحماية النص من التراخي والانحلال الفني، متى اقترنت بالفطرة ولم تُفسد صفاء المعنى أو جمال الإيقاع. وإن استيعاب هذه الثنائية لا يقتصر على تاريخ النقد فحسب، بل يمتد أثره إلى راهن الممارسة الأدبية والنقدية، حيث يعاد طرح السؤال ذاته: هل الإبداع رهين الموهبة أم ثمرة الجهد والتقنية؟ وهل يُنتظر من المبدع أن يكون ابن فطرته، أم تلميذًا لفنه؟ وبين هذين القطبين، يظل الطبع والصنعة معًا حجر الزاوية في فهم طبيعة القول الأدبي، ومعيارًا لاختبار صدقه الفني وعمقه الجمالي. وتبقى هذه الإشكالية مفتوحة

على التأويل والنقاش، وميدانًا ثريًا لاكتشاف الروابط الدقيقة بين الإلهام والعقل، وبين البساطة المركّبة والتكلف المنتج، في تاريخ النقد العربي القديم والمعاصر على السواء.

لقد نظر النقاد العرب إلى الطبع بوصفه قدرة كامنة في النفس الإنسانية، تُستثار بفعل التفاعل مع اللغة والبيئة والتجربة الحياتية، وتُعبّر عن نفسها من خلال سلاسة القول وانسياب المعنى وتلقائية البناء الفني. فالطبع، بهذا المفهوم، ليس ساذجًا ولا عفويًا بالمطلق، بل هو ذروة النضج الداخلي، وثمار تلاقح بين الموهبة الفطرية والوعي المكتسب، بحيث يُنتج القول الأدبي كما تُزهر الشجرة دون افتعال. أما الصنعة، فهي تجلٍّ لما يمكن أن نسميه بـ"الذكاء الفني"، إذ تُمثل القدرة على السيطرة الواعية على عناصر الخطاب، وتنظيمها في شكل جمالي محكم، لا يتخلّى عن البلاغة أو يضحي بالمحتوى من أجل الزينة الشكلية. وقد اتخذت الصنعة في المدوّنة النقدية العربية أشكالاً متعددة، من إحكام الوزن والقافية، إلى توليد الصور، واستعمال المحسنات البديعية، وإدارة المعاني بتوازن هندسي دقيق. وهذه الصنعة، وإن وُصمت أحيانًا بالتكلّف حين تُبالغ، فإنها . في جوهرها . تحقّق ما يمكن تسميته بـ"النضج الفني للفطرة"، لأنها تضبط الطبع وتوجّهه، وتحمي النص من الفوضى والارتجال. ومن هنا تنبع القيمة الفكرية لهذه الثنائية: فهي ليست مجرد تقابل شكلي بين العفوية والتقنية، بل تعبير عن جدل داخلي في الوعي العربي القديم بين الإبداع بوصفه حالة كونية خارجة عن الضبط، والإبداع بوصفه صنعة بشرية تخضع للمقاييس والحدود. فكان الطبع تعبيرًا عن "النفس المتصلة بعالم المثال"، بينما مثلت الصنعة صدى "العقل المنظم لعالم الواقع". وبين هذين البُعدين، تشكلت المواقف النقدية العربية التي كانت، في حقيقتها، مواقف من الوجود والمعرفة والفن.

من أبرز ما تُبينه هذه الثنائية (الطبع والصنعة) هو أن النقاد العرب، وإن لم يبلوروا نظرية متكاملة في الإبداع بالمعنى الحداثي، فقد أسسوا في كتاباتهم معايير دقيقة لفهم العملية الإبداعية، وميّزوا بين "السليقة الموهوبة" و"التمكّن المكتسب"، وقدموا رؤى متقدمة تقترب من الطروحات المعاصرة حول العبقرية، والذوق، والصدق الفني. لذا فإن إعادة قراءة هذه الثنائية اليوم ليست مجرد عودة إلى التراث، بل هي استعادة لجزء من الوعي النقدي العربي الذي يمتلك مقومات الانخراط في الحوارات الجمالية والفكرية المعاصرة. وإنّ استثمار هذا الوعي، من خلال دراسة معمقة ومؤصّلة كما حاولنا في هذه الورقة، يمكن أن يُسهم في تطوير خطاب نقدي عربي حديث ينطلق من تراثه، دون أن يُغفل حاجته إلى مساءلة مفاهيم الحداثة وما بعدها.

ونلحظُ من خلال العرض السابق أنَّ الشعراء منهم من اعتمد في نظمه لأشعاره على الطبع والسجية، ومنهم من ذهب إلى التكلف في نظم الشعر، ومنهم من لجأ إلى اتخاذ موقفًا وسطًا، ومنهم من برز في الصنعة ومنهم من برز في الطبع ومنهم من توسط بينهما. ونشير إلى انَّ آراء النقاد تنحصر في قضية الطبع في أمرين:

الأول: أن مصطلح الطبع عند كل من الأصمعي والجاحظ يقصد به قول الشعر على الفطرة وعفو الخاطر كيفما جاء دونما تنقيح وتدقيق، وليس شرطًا فيه أن يكون جيدًا في جميع إنتاج الشاعر، بل هو متفاوت حسب حالاته.

ثانيًا: إنَّ مصطلح الطبع عند ابن قتيبة، يدل على الفطنة والغريزة الشعرية، والموهبة، والاقتدار على قول الشعر، واليسر فيه بعيدًا عن حشو الكلام وتعقيد الألفاظ. ونلحظ عدم القدرة على تحديد تعريف محدد لمصطلح الطبع عند ابن قتيبة ، وكذلك نلحظ أنَّ النقاد رأوا أنَّ التكلف عيب يجب على الشاعر التخلص منه، وأنّ الصنعة تقع في مكان متوسط بين الطبع والتكلف.

لمحة عن الباحثين

أقدّم هذا العمل انطلاقًا من مساري الأكاديمي والبحثي في مجال اللغة العربية وآدابها، **فأنا الباحث الأول: ثائر محمد إبراهيم الملكاوي، محاضر في الجامعة الأردنية – مركز اللغات، وحاصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الأردنية.** انشغلتُ في أبحاثي المنشورة بقضايا الأدب العربي القديم والحديث، وبمسائل اللغة العربية وعلومها، سعيًا إلى قراءة النصوص قراءة علمية واعية تجمع بين الدقة المنهجية ووضوح الرؤية، وتوازن بين العمق الأكاديمي وإمكان الإفادة التعليمية. وقد حرصت في هذا العمل على أن يكون الطرح أقرب إلى اليسر والوضوح، دون التفريط بالقيمة العلمية أو الصرامة البحثية، ليكون صالحًا للمتخصصين وطلبة الدراسات العليا والمهتمين بالشأن اللغوي والأدبي على السواء. **ويشاركني في هذا العمل الباحث زيد الدباغ، طالب الدراسات العليا في مرحلة الدكتوراه في الجامعة الأردنية،** والمحاضر فيها، وهو باحث فاعل له عدد من الأبحاث المنشورة في مجال تخصصه، وقد أسهم حضوره العلمي في إثراء هذا العمل بالمناقشة الدقيقة، والتوسيع المنهجي، وتكامل الرؤى البحثية، بما جعل هذا الجهد ثمرة تعاون علمي واعٍ، لا يقوم على التقاسم الشكلي للأدوار، بل على الشراكة المعرفية الحقيقية.

حساب أوركيد الباحث ثائر محمد إبراهيم الملكاوي

https://orcid.org/0009-0009-0349-9509

حساب أوركيد الباحث زيد الدباغ

https://orcid.org/0008-0008-0849-9909

المراجع

إبراهيم، عوض، (2005م). عبيد الشعر، *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*، العدد 559.

ابن جني، أبو الفتح (1952م). الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط 2، بيروت، دار الهدى.

ابن طباطبا، محمد بن احمد محمد، (1982م). عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الستار، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، (1983م). العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (1966م). الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر، دار المعارف.
ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (1993م). لسان العرب، ط 3، بيروت، دار صادر.
أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل، (1999م). الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العنصرية.
الأرباع، نسرين، (2016م). صناعة الشعر بين قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري في كتابيهما "نقد الشعر والصناعتين"، رسالة الماجستير، الجزائر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.
الآمدي، الحسن بن بشر، (1975). الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، ط 4، مصر، دار المعارف.
بدوي، أحمد، (1975). أسس النقد الأدبي عند العرب، ط 1، مصر، نهضة مصر للطباعة.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1995م). البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، دار الجيل، بيروت.
الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (1991م). أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر ط 1، جدة، دار المدني.
الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (1992م). دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر، ط 3، القاهرة، مطبعة المدني.
الجمحي، محمد بن سلام، (1989م). طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني.
الجوهري، إسماعيل بن حماد، (1987م). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 4، بيروت، دار العلم للملايين.
حمودة، عبد العزيز، (2006م). المرايا المقعرة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.
الزمخشري، جار الله محمود، (1998م). أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية.
الشيباني، إسحاق بن مرار، (2001م). شرح المعلقات التسع، تحقيق عبد المجيد همو، ط 1، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
ضيف، شوقي، (2005م). الفن ومذاهبه في الفن في الشعر العربي، ط 9، مصر، دار المعارف.
طبانة، بدوي، (2000م). أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية النقدية، ط 3، بيروت، دار الثقافة.
العاكوب، عيسى علي، (2010م). التفكير النقدي عند العرب، مدخل إلى نظرية الأدب العربي، ط 4، بيروت، دار الفكر المعاصر.
عصفور، جابر، (2021م). الصورة الفنية، ط 3 لبنان، المركز الثقافي العربي.
عصفور، جابر، (2021م). مفهوم الشعر، ط 5، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
فتاتيت، إسماعيل حسين، (2015م). قضية الطبع والتكلف في التراث النقدي، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة مصراتة، العدد الخامس.
القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، (1953م). زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق محمد البجاوي، ط 1، القاهرة، دار إحياء الكب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (1981م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 5، بيروت، دار الجيل.
مطلوب، أحمد، معجم النقد الأدبي القديم، ج1، ط1، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
هدارة، محمد مصطفى، (1990م). اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط1 ، بيروت، دار العلوم العربية للطباعة والنشر.